لويس عوض

المكالمات أو شطحات الصوفي

هذه قصيدة من ثلاث مراحل: الاولى هي «اللاهوت»، والثانية هي «الناسوت»، والثالثة هي« الخلاص» . وهي تمثل تجربة روحية مررت بها عام ١٩٥٦ حينما كنت في نيويورك ، فأنشأت المرحلة الاولى والمرحلة الثانية ، ولا زلت أمر بها في عام ١٩٦٤ ، وهو عام استيحاء المرحلة الثالثة .

وهكذا انقطع الهامي ثماني سنوات كاملة . وليست هذه اول مرة ينقطع عني فيها الهام الشاعر او وحي الفنان او شيطان الادب الخالق . فمنذ ان نظمت قصائد « بلوتولاند » على مروج كيمبريدج وعلى ضفاف الكام بين ١٩٣٧ و ١٩٤٠ ترملت في ربة الشعر ستة عشر عاماً حتى عرفت الغربة من جديد عام ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، لا أقول على مروج مانهاتان او على ضفاف الهدسون : فما هنالك مروج ولا ضفاف ، ولكن بين ناطحات السحاب الجرداء والشهباء ، حيث البشر معلّبون وحيث لا مفرّ من الاختيار بين قول الشعر وبين النيوروز او العصاب .

وقد حسبت يومئذ اني برئت نهائياً من خطايا شبابي ـ أعني من اشعاري ـ ولكن نازعاً لا يقاوم دفعني مرة اخرى الى خطيئة الفن ؛ فلعل القارىء يغفر لي ما تقدم وما تأخر من هذه الذنوب .

ولست هنا بسبيل ان اكتب سيرتي الذاتية ، وانما يكفي ان أذكر شيئاً واحداً قد يعين القارىء على فهم هذه التجربة : وهو اني وقفت في ١٩٥٦ على أعتاب الكثلكة ، بل وعلى اعتاب الدير ، ولم ينقذني من هذه الازمة الروحية الا العدوان الثلاثي على مصر : فعدت لفوري الى اهلي ووطني وانغمست من جديد في روح جماعتي ووجدت في الدين القومي خلاصي.

ل . ع .

اللاّهوت

١ : الخلق بالجدلية

تعالى اللهُ باري الكون بالفعل الذي جَمُدا
ومفسدُه لينقذه فيحيا دائماً ابدا
تعالى اللهُ قبل الخلق في اللاشيء منفردا
حبيسَ كماله الخاوي يخاف السلْبَ والبَدَدا
فينقضَ نفسَه في الكون متخذاً به جسدا
وينقذَ نفسَه بالنقص متخذاً له وَلَدا
وكان الواحدَ الأحدا ، فقسّم نفسَه عددا
وفي الثالوث عاش الله متحداً ومنفردا
فهذا الكونُ طفلُ الله فيه روحه اتّقدا

٢ : الصوفي يركب العنقاء

وسبحانَ الذي أسرى بروحي في الدجى قَسْرا
وأركبني على العنقاء تطوي الجَدْيَ والنَّسْرا
واصعدني على المعراج سبعاً ليلةَ الإسْرا
فلما صحتُ : يا غوثي ! تبدّل عسرُه يُسرا
ومدَّ الخيطَ بين النار والفردوس لي جسرا
وادخلني حمى الملكوت من توتٍ الى مِسْرى
لأبصرَ عرشَ شاهنشاهَ بين الجند والأسرى
تخيّر في الورى موسى وحمّله عصا كسرى
وأعطى الابنَ يمناه وأعطى احمدَ اليُسرى

٣ : الخلق بالقاطيغوريات

تعالى موجدُ الوجود بالموضوعِ والذاتِ
ليُعرَفَ مِن هويته وبالعَشْرِ مقولاتِ
(واولُ هذه « الجوهرُ » يوعى دونَ إثباتِ)
و « بالكمِّ » و « بالكيفِ » ومختلفِ « العلاقاتِ »
سجينٌ في « المكان » الحُرّ سجّانِ الهوّياتِ
ولا موجودَ الا في « الزمان » الرائحِ الآتي
وفي « الوضعِ » وفي « الحالِ » وفي « المِلْكِ » علاماتي
وفي « الفعلِ » ابي الصيرورة العظمى لغاياتِ
وعاشرُها « انفعالُ » الكونِ بالقاطيغورّياتِ

٤ : الكلمة تصبح اول خلق الله

وسبحانَ الذي أرسى منازلَه على أُسُسِ
وأنزل نفسَه في المادّة السفلى بلا دَنَسِ
فقبّل ثغرَ آمنةٍ لترشفَ روحَه القُدُسي
وحمّلها وديعتَه قبيل الفجر في الغَلَسِ
فشقَّ البدرَ مولدُه وبعثرَ أنجمَ الكَنَسِ
جميلُ الوجهِ احمدُه زكيُّ النفْس والنفَسِ
محمّدُ ، نورَ عبدِ اللهِ ، يا رمزي ومقتَبَسي
يتيمٌ انتَ كالانسان عسَّ الليلَ في حَدَسِ
وانتَ الطفلُ في الثالوث نطفتُه من القَبَسِ

٥ : المعجزة تتكرر وتتكلم في المهد

أنا ابنُ الله والعذراء في شرع الهوى اجتمعا

تخيّرَ بنتَ عمران فصاهرَ طاهراً وَرِعا
ومريمُ بيتُ لحمِ اللهِ في أحشائها اضطجعا
تمثّلَ روحُه بشراً وراودَها ليجتمعا
فولولتِ البتولُ : ارحمْ ولا تمسَسْ ! فما استمعا
وأشعلَها بوقدته كبرقٍ في الدجى لَمَعا
وفي الثالوث عاش الله منفرداً ومجتمعا
ليقتلَ نفسَه بالحبّ في زيّي ويرتفعا
وعمّدكمْ بنار الحب من أحشائه اندلعا

٦ : اللوغوس والخليقة

رأيتُ العقلَ مبتئساً يناجي الليلَ في كَمَدِ
انا وحدي من الأزلِ ، انا وحدي الى الأبدِ
لذا سُمّيتُ بالأحدِ ، لذا سُمّيتُ بالصمدِ
بلا كُفءٍ ولا نَدٍّ ولا زوجٍ ولا وَلَدِ
ولا حبٍّ ولا بغضٍ ولا عبءٍ ولا سَنَدِ
ولا خلٍّ ينادمني وننسى الوقتَ بالسُّرُدِ
ولكنْ نقطةٌ عظمى بلا خطٍّ ولا عَدَدِ
فلا تعجبْ اذا استولدتُ هذا الكونَ من خَلَدي
بلا فرْجٍ ولا ظئرٍ ولا ضَرْعٍ ولا جَسَدِ

٧ : ظل اللوغوس يسقط في الكهف

ولا تعجبْ ، فهذا الكونُ من أضغاثِ أحلامي
ككابوسٍ كثيفِ الظلّ من إسقاط آلامي

به الانسانُ يحدجني ويرقبُ يومَ اعدامي
ويعبدُ نفسَه دوني ويكشفُ سترَ أصنامي
ويفسقُ في مقاصيري ويهتكُ عِرضَ احرامي
ويشنقُ نفسَه بعدي بحبل المنطقِ الدامي
به الانسانُ مرآتي وَطلقي يومَ آلامي
عقيمٌ مثلَ أوهامي ، دميمٌ مثلَ الهامي
له روحٌ كشمطاءٍ بلا حَيْضٍ وإسقامِ

٨ : شفيعات الوجود

ولولا وجهُ آمنةٍ عروسي يومَ إسلامي
وزينبُ أمُّ أفراحي ومريمُ أمُّ آلامي
وعائشةٌ مشتْ في البيد مع جبريلَ قدّامي
واختُ المجدلِ الحبلى بحبّي في ربى الشامِ
وفاطمةٌ سراجُ الكون تجلو ليلَ أيامي
وتطهو لي طعامَ الخلد في أطباق أعوامي
لما استولدتُ احلامي ولا استعذبتُ اوهامي
بل استيقظتُ كالمذعور من نومي واحلامي
وطار الكونُ من خَلَدي وعدتُمْ نسجَ اوهامي

٩ : شفيعتي في الدارين

وهذا أُسُّ مملكتي ، وهذا سرُّ كتلكتي :
يدُ العذراء قد قبضتْ على مفتاح مملكتي
صليبُ الحبّ مشنقتي ! دنتْ بالحبّ تهلكتي !

ختمتُ الرحلةَ الصغرى وما استوفيتُ معركتي
وأقعى اليأسُ في نفسي وروحي جدّ مُنهكةِ
فيا سيدةَ الفيروزِ ، يا غوثي ومُدركتي :
خدمتُكِ دون اشراكٍ ، فما نفسي بمُشركةِ
وحقِّ الليل إنْ ارخى ، وحقِّ العينِ إنْ بكتِ
شفيعيَ انتِ في الداريْنِ ، مُنقذتي ومُهلكتي

١٠ : الهيولى تتفاخر بالخلق

أنا العذراءُ أمُّ الكون ساهرةٌ على ولَدي
وكان العقل من قبلي بلا قلبٍ ولا كبِدِ
وجودٌ واجبٌ اسمى يخافُ خطيئةَ الجَسَدِ
ويخشى الخلقَ بالأبعاد والأزمان والعَدَدِ
رميتُ عليه طِلسْمي لأنقذَه من البَدَدِ
نصبتُ له فِخاخَ الحبِّ في الأبعاد والأمَدِ
فذاقَ العقلُ طعمَ الحبِّ من ثغري ومن جَسَدي
وأخصَبني بآلته فذقتُ حلاوةَ الوَتَدِ
وهذا الكونُ طفلُ العقلِ صورةُ ربِّه الأبَدي

١١ : العقل يتبرأ من الهيولى

فقال العقلُ : بلْ كذبتْ ، انا الينبوعُ نوراني
أهذا الشرُّ من عندي ؟ أهذا النقصُ برهاني ؟
أهذي صورتي انبعجتْ على طلعةِ انسانِ ؟
معاذي انْ يعيثَ الشوقُ في وجْدي ووجداني

سريرُ العقل من نورٍ بلا نارٍ وأدرانِ
حلفتُ عليكَ ، لا تنصتْ لتضليلٍ وبهتانِ
فأمُّ الكونِ زانيةٌ وكلُّ ابنٍ لها زانِ
غشَتْ ماخورَ بَعْلَزَبُونَ بين البُعْدِ والآنِ
وهذا الكونُ بالفحشاءِ من بذرةِ شيطانِ

١٢ : العقل يلبس سربال الأين والمتى

سمعتُ العقلَ تحت الليل يطرقُ بابَ صومعتي
فقلتُ : اذهبْ ، انا متعبٌ ، ورأسي فوق مضجعتي
فقال : افتحْ ، وحقِّ الليلِ لن تجدي مُخادعتي
ألمْ تسألْ : تُرى ما الأينُ ، في شكٍّ وزعزعةِ ؟
انا الأينُ ، ابو الأبعادِ ، مشهورٌ بأربعةِ
هي الأطوالُ والأعراضُ والأعماقُ مرتعتي
وأركبُ صهوةَ الأزمانِ ، فالأحداثُ بردعتي
وبالحسنى تجادلني بلا لغوٍ وجعجعةِ
فقلت : ادخلْ ، فبابُ الفكرِ مفتوحٌ على سَعَةِ

١٣ : السجن الاول

وكان الأينُ متشحاً بسربالٍ وزُنّارِ
ومُعتمّاً قلنسوةً تجللّه بأسرارِ
مسُوحٌ كلُّها سودٌ مجلّلةٌ بأوزارِ
كبطريقٍ بباب الديرِ يستخفي من العارِ
فقلتُ : اجلسْ . أجاب : اجلسْ ، فاني صاحبُ الدارِ

وانتَ الضيفُ يا مسكينُ فاحمدْ ربَّكَ الباري
فلولا الأينُ لانطلقتْ من الأبعاد أفكاري
وفرّتْ روحُكَ الحمقى وماتتْ دون إثمارِ
فسبحاني حفظتُ الكونَ في سجني وأسواري

١٤ : مونولوغ الأين

انا ابنُ العقلِ انجبَني لأحفظَه من النارِ
وقبلَ الخلق أضمرَني وحجَّبني بأستارِ
وقال العقلُ : هيّا اخرجْ لتحبسَ كلَّ أفكاري
والاّ فرّتِ الأفكارُ من أبراجِ أغواري
أقمتُكَ حاكماً في الكون تجبرُه بإجباري
فكنْ جَبْري وناموسي ، وكنْ فظّاً كجبّارِ
وخذْ سوطي وأغلالي وأبراجي وأسواري
وكنْ سجّانَ هذا الكونِ واحبِسْ فيه أقماري
فأنتَ الحارسُ المسؤولُ عن ذاتي وعن داري

١٥ : الجبر هو الخطيئة الاولى

فقلتُ : السمعُ والطاعةُ للمولى من القِدَمِ
أجابَ : اخساً ! وسُحْقاً لي ! سكبتُ الدمعَ من نَدَمي
فيا ويلاهُ من قلقي ومن جزَعي من العَدَمِ
انا بالحبِّ مصلوبٌ لأمسحَ شرَّه بِدَمي
فكيف أعيثُ بالبغضاء في الأفلاكِ والسُّدُمِ ؟
وليس الجبْرُ من شِيَمي : انا حرٌّ من القِدَمِ
وكيف الحرُّ يُنجبُ غيرَ مختارٍ من الخَدَمِ

فخلِّ السوطَ والأغلالَ عن شُهُبي وعن سُدُمي
والا أحرَقوا بيتي ، وما بيتي بمُنْهَدِمِ

١٦ : العقل يعشق الهيولى

وهذي حيلتي الكبرى لأجمعَ شملَ أكواني
هيولى الكونِ ناشزةً بلا عقلٍ ووجدانِ
لهيبُ العشق أدركَها وأضرمَها كبركانِ
فخذْ حبّي وغلْغلْني به في الكونِ والآنِ
وكنْ طولي وكنْ عَرْضي وكنْ عمقي وعَمْداني
ومسطرتي وفرجاري ومحاتي وميزاني
وضاجعْ هذه العذراءَ في حبٍّ وتحنانِ
وهندسْها بأضلاعٍ وأقواسٍ لتهواني

١٧ : لا خلق بالعشق الخامل

ولكنّي أرى الحبَّ بلا حَدَثٍ ولا حَرَكَهْ
بلا خيْرٍ ولا أثَرٍ ولا ثَمَرٍ ولا بَرَكَهْ
ثباتُ الكونِ مقتلُهُ عدوٌّ مدَّ لي شَرَكَهْ
فخذْ يا أينُ طاقاتي ، وحرِّكْ لي بها الحَرَكَهْ
أدِرْ كوني مدارات توالي النورَ والحَلَكَهْ
وخطِّطْ لي مجالَ الفعْلِ ممهوداً لمن سَلَكَهْ
مطيّتُكَ الزمانُ الحرُّ مُعطي العقلِ والحَرَكَهْ
جوادٌ راكضٌ يعدو ، جموحٌ ، جلَّ مَن مَلَكَهْ
وسرْ حولي به خَبَباً تُصِبْ أفعالَكَ البَرَكَهْ